مشروع مساعدة الأسر الفقيرة

بعد مشروع المراكز الاجتماعية

لحضرة صاحب السعادة توفيق دوس باشا

انطلقت المتطوعات فى الشهر الماضى وعلى رأسهن لجنة من كرائم العقيلات يطفن بالدور والقصور ليجمعن ما تجود به أريحية ربات البيوت من كل شىء بلا استثناء: قديما وجديدا، مأكولا ومليوسا، وعدن إلى "قاعدتهن" مسرورات مأجورات ووراءهن أحمال من جود المتبرعات: من الأرز والسكر والسمن والصابون والملابس على اختلافها، مما قدرن أنه يكفى الأسر الفقيرة فى حى كامل مدة شهر من الزمان. وقد قمن فعلا بتوزيعه.

هذه حركة طيبة وبداية تبشر بالخير وخطوة عملية فى طريق "التضامن الاجتماعى" بين الأغنياء والفقراء فى الحى الواحد أو فى عدة أحياء. وأغلب الظن أن الحركة ستحتفظ بهذا النجاح فى خطواتها التالية، فالمصرى والمصرية لا تنقصهما روح البر، ولكن تنقصهما روح التنظيم، ومتى وجدا من ينظم الإحسان على وضع من الأوضاع، فإنهما ينسيان دعوته مرة ومرات.

وهذا هو المشروع الثانى الذى تقوم به وزارة الشئون الاجتماعية لإصلاح حال الطبقات الفقيرة، والمشروع الأول هو مشروع المراكز الاجتماعية فى الريف. هذه المراكز التى تحمل الى الفلاح فى عقر داره العلاج والتعليم والارشاد الزراعى والصحى، وتزوده فى مقره بالطبيب المعالج والزائرة الصحية والمرشد الزراعى والاجتماعى، وتأخذه بالرفق واللين والمعاشرة، لا بالقسر والقسوة والأوامر الجافة.

وكان من سوء الحظ أن تولد فكرة المراكز الاجتماعية وأزمة الحرب آخذة بالخناق، والميزانية لا تملك التوسع فى تحقيق المشروعات الجديدة، فضاقت ميزانية المراكز الاجتماعية ثم ضاقت، حتى اقتصرت على خمسة مراكز لا يزال بعضها يفتقر إلى الأدوية والأدوات الصحية بسبب الحالة الحاضرة.

أما المشروع الجديد لمساعدة الأسر الفقيرة، فمن حسن الحظ أنه لا يحتاج إلى مال ولا يتوقف على اعتمادات الميزانية، وهو مشروع منقول عن بعض الأمم الأوربية وبخاصة بلجيكا، وقد نجحت تجربته هناك نجاحا رائعا فلم تعد المتطوعات بحاجة الى أن يطفن بالبيوت، بل أصبحت ربات البيوت هن اللواتى يحملن إلى مراكز المساعدة ما تجود به أريحتهن كل شهر وكل يوم.

وكثير من المشروعات يفلح فى بعض الأمم ولا يفلح فى بعضها الآخر ، ولكن هـذا المشروع مكفول النجاح فى مصر لأنه لا يبعد كثيرا عن عاداتهـا وتقاليدها ، بل هو يلبى طبيعة المصريين الكريمة ، ويستحث سليقتهم فى الاحسان إلى المعوزين ، ذلك الإحسان الذى يؤدى عدم تنظيمه الى أن يكون التسول حرفة رائجة تدر على المتسولين من الربح ما تصغر بجانبه أرباح العمل ، فيستمرئونه ويستسهلونه ويصبح التسول أحد الأعمال المعترف بها وإن لم يعترف بها القانون ! !

وقد بدأ المشروع صغيرا فى ثلاثة أحياء ، وذلك خير ، فالتجربة فى دائرة محدودة أضمن حتى إذا نجحت عمم المشروع فى جميع الأحياء ، فكل حى يضم فقراء وأغنياء ، ومن دواعى التعاطف والتضامن أن يجود أغنياء كل حى على فقرائه ، وأن يتولى تنظيم هذا الجود مركز من مراكز المساعدة ، يدرس حالة كل أسرة واحتياجاتها ، ويوزع عليها كل شهر أو كل أسبوع ما يستطيع إمدادها به من تبرعات الأثرياء .

ولعل كفالة كل حى للأسر الفقيرة فيه يخلق تنافسا كريما بين أحياء العاصمة وسواها من المدن التى يعمم فيها المشروع ، فليست العاصمة وحدها هى التى تحتاج لتنظيم الاحسان فيها ، وعطف فقرائها على أغنيائها ، إذ فى كل مدينة ما يكفيها من هؤلاء وهؤلاء .

* * *

ولقد كان من دلائل التوفيق أن تنهض المرأة المصرية بهـذا المشروع ، فالمتطوعات يستطعن الدخول إلى البيوت الغنية بلا حاجز ولا مانع ، ويستطعن أن يتفاهمن جيـدا مع ربات الأسر بلا تحفظ ولا احتراس ، ثم يستطعن كذلك أن يدخلن إلى البيوت الفقيرة بلا خجل ولا غضاضة ، وأن يدرسن حالتها بلا مداراة ولا تجمل . ومثل هذه الميزات لا تتوافر للشبان والرجال .

وهذا وجه واحد من وجوه المسألة . وهناك وجه آخر لا يقل أهمية عن هذا ولا فائدة للمتطوعات أنفسهن ، فهو يعودهن الخـدمة الاجتماعية ، ويرفع مستواهن النفسى والفكرى عن مستوى القاعدات اللواتى "يقتلن الوقت" فى قرقزة اللب والزيارات الفارغة والأحاديث التافهة والتجمل السخيف .

وستجد كل فتاة تتطوع لهذا العمل النبيل عوضا كاملا عما تنفقه من الوقت والجهد فى شعورها بأداء الواجب ، وفى نظرات الشكر الناطقة أو الصامتة من نساء البيوت الفقيرة

وأطفالها ، أولئك الذين يجدون فيها ملكا من ملائكة الرحمة يهبط عليهم كل شهر أو كل أسبوع حاملا إليهم ما حرمهم الفقر منه من ضروريات الحياة ، وليس هذا الإحساس بالشيء اليسير ولا بالمكسب الزهيد .

أما ربات البيوت اللواتى يتبرعن بالفائض عن حاجة بيوتهن فسيجدن لذة فى هذا التبرع الذى لايكلفهن شيئا . بل سيتعلمن أن كثيرا مما يقينه من الملابس القديمة والأحذية وسواها قيمة لدى أناس آخرين محرومين فيشعرن بنعمة الله عليهن ، ويجدن من الواجب أن يشكرنه على هذه النعمة بمداومة العطاء .

* * *

وعلاج الحرمان عن طريق الإحسان يجد من بعض المتطرفين انتقادا شديدا ، ولكن معظم هذا النقد لا يقوم على أساس ، وهم ولا شك يطلبون مثلا أعلى حين يريدون علاج الحرمان عن طريق تعديل الأوضاع الاقتصادية ولكن المثل العليا كثيرا ما تصطدم بالواقع وتتعارض مع أوضاع الحياة الواقعة ومع الغرائز البشرية الكامنة .

ولهذا السبب أفسحت الديانات فى هذه الناحية حيث فشت النظريات الاجتماعية المتطرفة ، وكان عدد المتأثرين بالدين فى التعاطف الاجتماعى أضعاف عدد المتأثرين بهذه النظريات ، لأن الأديان سايرت الفطرة وراعت الغرائز وحسبت حسابا للواقع بجانب المثل العليا المطلوبة . ومن عهد المصريين القدماء وديانتهم الاجتهادية الأولى إلى عهد الإسلام آخر الأديان السماوية نجد أثر الدين قويا فى حث النفوس على الإحسان والبر بالمحرومين .

فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة كتب أحد حكام الأقاليم فى الوجه القبلى لوحة على قبره جاء فيها : " أطعمت الجائعين وكسوت العارين " وكتب حاكم لإقليم أسيوط لوحة جاء فيها : " كانت عندى غلال وافرة فلما حلت المجاعة بالبلاد وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل ، وسمحت لكل إنسان بأن يأتى ليأخذ غلالا من عندى وأعطيت الزوجة والأرملة والولد " . وكتب حاكم لإقليم ادفو فى لوحة يقول : " من منتجات هذا الأقليم أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت أقداح اللبن ، ومن غلال الأوقاف الأبدية أعطيت الجائع وأصبحت شأن كل رجل وجدته عائشا من غلال غيره ، وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد " (١) .

---

(١) نقلا عن كتاب " على هامش التاريخ المصرى القديم " للمرحوم عبد القادر حمزة باشا .

ثم تمضي الأجيال وتتعاقب الأديان السماوية وكلها تجمع على وجوب الإحسان والعطف على المحرومين، وقد كان للدين المسيحي أثر كبير في بث روح التراحم والتعاطف بين الأغنياء والمحرومين، ثم جاء الإسلام فإذا هو يفرض الزكاة فرضا ويوكل السلطان في جمعها، ثم يجعل الصدقة واجبا مرة وسنة مرة، ويثني على جماعة من المسلمين فيقول عنهم " وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " .

* * *

وقد تجد مثل هؤلاء المشروعات من يعترض عليها اعتراضا آخر، وهو أن الإحسان بالغة ما بلغت قيمة التبرعات لا تنهض على أساسه مشروعات دائمة مكفولة البقاء . وهذا صحيح إلى حد ما، ولكن هذا الاعتراض لا تكون له قيمته إلا حين تقتصر " وزارة الشئون الاجتماعية " على هذا المشروع وحده . والواقع غير هذا، فذلك مشروع من مشروعات، ووسيلة من الوسائل الكثيرة التي يتحقق بها التضامن الاجتماعي بين طبقات الشعب المختلفة. ونحن في هذه الفترة من النمو الاجتماعي مضطرون إلى الأخذ بجميع الوسائل، ومازمون ألا نغلق نافذة واحدة تطل علينا من خلالها أشعة الشمس الجديدة . شمس التعاون والتضامن، بل شمس المدنية والحضارة .

وإذا قلت المدنية والحضارة — بدل التعاون والتضامن — فلست أعني التلاعب بالألفاظ، فالواقع أن أهم ميزة للحضارة الزاهية إنما هي التضامن الاجتماعي الذي تنشئه القوانين تارة وينشئه التطوع والتبرع تارة . والواقع أن الإنسان المتحضر يتردد مرة ومرة قبل أن يصف بالحضارة امرأة أنيقة مترفة لا تعطف على امرأة منها بائسة محرومة، وقبل أن يصف بالتحضر سكان القصور الشامخة إذا كانت تلك القصور تطل على أكواخ متواضعة تتمنع عنها كل طيبات الحياة .

إنها حضارة زائفة تلك الحضارة التي لا تعرف التضامن الاجتماعي والتعاطف الانساني مهما أخذت بمظاهر التمدن .

والآن هاهو ذا المجال واسعا أمام ربات البيوت للمساهمة في إنهاض روح التضامن، وفي إثبات روح التمدن، وهما متلازمتان بل مترادفتان في هذا الزمان .

توفيق دوس